

الفصل الثالث

مَنْزِلَةُ الصَّبْرِ وَالصَّابِرِينَ فِي الْقُرْآنِ

المتتبع للمواضع التي ذكر فيها الصبر والصابرون في القرآن الكريم يتضح له بجلاء لا يقبل الشك ، أن الصبر مقام من أرفع مقامات الدين ، وخلق من أعظم أخلاق المؤمنين ، ومنزلة من أجل منازل الصالحين ، وشعبة من أبرز شعب الإيمان ، وعروة من أوثق عرى الإسلام ، حتى إن القرآن جعله مفتاح كل خير ، وباب كل سعادة في الدنيا والآخرة .

والدليل على ذلك عدة أمور :

أولاً : اقتران الصبر بالقيم الروحية العليا في الإسلام

إن القرآن الكريم قرن بين الصبر وبين قيم الدين العليا ، وأخلاقه المثلى ، ومثله الفضلى ، واقتران الشيء بالشيء ، أداة من أدوات القرآن الرائعة في الدلالة على المعانى وتثبيتها . ومن ذلك أنه قرن الصبر :

(أ) باليقين في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة: ٢٤) .

والمراد باليقين - كما يقول الإمام الغزالي - المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين .

والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة ، إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار^(١) (يعنى باعتبار أن الإيمان يُطلق على التصديق والأعمال جميعاً ، فيكون له ركنان أحدهما يمثل المعرفة والتصديق وهو اليقين ، والآخر يمثل الحركة والعمل ، وهو الصبر . وهذا هو سر الاقتران بينهما) .

(١) إحياء علوم الدين ج٤ ص ٦٦ .

ثم إن شياطين الإنس والجن يغزون قلب الإنسان بسلاحين .

أحدهما : سلاح الشهوات لإفساد سلوكه ، فيغوى .

والثانى : سلاح الشبهات لإفساد فكره ، فيضل .

وعلى المؤمن أن يصد الغزو ويجاهد هؤلاء الأعداء بسلاحين أمضى وأقوى، هما :

١- سلاح الصبر ، ليجاهد به الأهواء والشهوات .

٢- وسلاح اليقين ، ليجاهد به الشكوك والشبهات .

وبهذين ينتصر فى داخله الإنسان على الحيوان والشیطان .

(ب) وبالشكر ، فى مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

وقد تكررت هذه الفاصلة القرآنية أربع مرات فى أربع سور مكية^(١) .

ويقول بعض المفسرين فى معنى ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ، أى كل مؤمن ، لأن

الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر .

ويشرح الإمام الغزالي معنى نصفية الصبر للإيمان ، فيذكر أن الإيمان كما يُطلق على التصديق القلبي والأعمال الناتجة عنه ، قد يُطلق باعتبار آخر - على الأحوال النفسية المثمرة للأعمال . وعند ذلك ينقسم ما يلاقيه الإنسان إلى ما ينفعه فى الدنيا والآخرة . أو يضره فيهما . وله بالإضافة إلى ما يضره حال « الصبر » . . . وبالإضافة إلى ما ينفعه حال « الشكر » ، فيكون « الشكر » أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار ، كما أن « اليقين » أحد الشطرين بالاعتبار السابق . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه : « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر »^(٢) . وقد يُرفع أيضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) سورة إبراهيم : ٥ ، ولقمان : ٣١ ، وسبأ : ١٩ ، والشورى : ٣٣ .

(٢) قال الغزالي : ولما كان الصبر صبراً عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمن : باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة لطلب اللذذ ، والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب - قال عليه السلام بهذا الاعتبار : «الصوم نصف الصبر» لأن كمال الصبر عن دواعى الشهوة ، ودواعى الغضب جميعاً ، فيكون الصوم بهذا ريع الإيمان . فهكذا ينبغى أن نفهم تقديرات الشرع . (الإحياء ج٤ ص٦٦) .

وقد جمع الرسول ﷺ بين الشكر والصبر فى حديثه حين قال : «عجباً لأمر المؤمن ! إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له»^(١).

(ج) وبالتوكل ، فى مثل قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَنُّوا لِنَبِيِّنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَا جُرْأَلَاءَ فِي الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ (النحل: ٤١، ٤٢) ، وقوله : ﴿ نِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ (العنكبوت: ٥٨، ٥٩).

وإنما جمع بين الصبر والتوكل ، لأن نجاح الإنسان فى تحقيق مراده يتوقف على أمرين : أمر من جانبه ، وفى وسعه ، من جهود تُبذل ، وأثقال تُحمل ، وصعاب تُدلىل ، وهذه كلها تحتاج إلى صبر .

والأمر الآخر : ما لا يملكه ، وليس فى وسعه ، مما يضره الغيب ، وتختبه الأقدار ، من أحداث كونية ، وظروف خارجية ، ومفاجآت غير متوقعة ولا محسوبة ، ورياح تُجرى السفن بما لا تشتهى . فهذه لا يملك المؤمن إزاءها إلا التوكل على الله ، والالتجاء إليه ، والثقة بتدبيره ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٤٩) عزيز : لا يذل من التجأ إليه . حكيم : لا يضيع من وثق بتدبيره .

(د) وبالصلاة ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٣).

والصبر هنا يمثل دور الإرادة البشرية ، أما الصلاة فهى - كالتوكل - تمثل دور المعونة الإلهية ، ولا غنى للمؤمن عنها . ونحو ذلك قوله تعالى فى سورة هود : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ (هود: ١١٤، ١١٥).

(هـ) وبالتسبيح والاستغفار ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الطور: ٤٨) .

(١) رواه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (غافر: ٥٥).

(و) وبالجهاد ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ (محمد: ٣١).

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل: ١١٠).

ومعلوم أن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام كما فى الحديث النبوى الذى رواه الترمذى عن معاذ ، وأن احتمال مشقات الجهاد ومتاعبه ، وما فيه من بذل النفس والنفس فى سبيل العقيدة لا يتم إلا بالصبر . فلذا جمع بينهما .

(ز) وبعمل الصالحات ، فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (هود: ١١).

ولا ريب أن عمل الصالحات لا يتحقق إلا بالصبر ، والصبر قبل العمل بإخلاص النية وتنقيته من شوائب الرياء ، فإنما الأعمال بالنيات ، والصبر أثناء العمل ، بإتمامه على الصورة المرادة للشرع ، الموافقة للسنة ، والصبر بعده بألا يأتى بما يبطله من العُجب والغرور ونحو ذلك من المفسدات للأعمال الصالحة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٣) ، وقال : ﴿ لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾

(البقرة: ٢٦٤)

(ح) وبالتقوى ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦) ، ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ (آل عمران: ١٢٠) ، ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(يوسف: ٩٠)

قال فى « قوت القلوب » : « والتقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر ، لا يتم كل واحد منهما إلا بصاحبه ، فمن كانت التقوى مقامه كان الصبر حاله ، فصار الصبر أفضل الأحوال ، من حيث كانت التقوى أعلى المقامات ، إذ الأتقى هو الأكرم عند الله ، والأكرم على الله هو الأفضل »^(١).

(١) قوت القلوب ج ١ ص ١٩٧ .

(ط) وبالحق فى سورة العصر حيث قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفَرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾
(العصر: ١-٣)

فجعله أحد الأركان الأربعة التى لا بد منها لنجاة الإنسان - كل إنسان - من خسران الدنيا والآخرة ، وهى الإيمان والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، وإنما قرن التواصى بالصبر بالتواصى بالحق ، للدلالة على أن تكاليف الحق ثقيلة ، وأعباء جسيمة ، وأن طريقه محفوفة بالمكاره ، مزروعة بالأشواك ، فلا بد لمن جند نفسه للحق موصياً به وداعياً إليه ، أن يوطن نفسه على الصبر فى سبيله ، فلا ينصر حق بغير صبر ، ولا تستغنى جماعة تتواصى بالحق عن التواصى بالصبر .

ونظير هذا ما جاء فى وصية لقمان لابنه : ﴿ يَبْنِىْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ۝١٧ ﴾ (لقمان: ١٧). فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يجرا على صاحبهما الأذى من الخلق ، فلا غرو إن قرنت الوصية الحكيمة بينهما وبين الصبر على ما يصيب المرء ، تأكيداً للمعنى الذى ذكرناه .

ومن تعظيم الصبر هنا : أنه كرر لفظة التواصى به ، ولم يكتف بعطفه على الحق دون إعادة صيغة التفاعل ، وذلك للتنبيه والتأكيد على مكانة الصبر ، وأهميته المستقلة بذاتها ، واستحقاقه لأنه يتواصى به أصلاً لا تبعاً .

(ى) وبالرحمة فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ ﴾ (البلد: ١٧).

وقد جاء ذلك بعد قوله تعالى : ﴿ فَلَا أَفْتَحَمُ الْعَقَبَةَ ۝١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٩ فَكُرْبَةً ۝٢٠ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝٢١ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝٢٢ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝٢٣ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝٢٤ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٢٥ ﴾ (البلد: ١١-١٨).

فكلمة «ثم» هنا للدلالة على الترقى من درجة إلى أعلى منها . فليست «ثم» هنا للترتيب والتراخى فى الزمن ، بل فى الرتبة والدرجة . مما ينبئ بالقيمة العليا لما ذكر بعدها . وهو يتمثل فى ثلاثة أشياء : الإيمان ، وهو بلا ريب أساس البناء ، ومحور كل

خير وصلاح . والتواصى بالصبر ، وهو أساس النجاح والنجاة فى الدنيا والآخرة . ولم يكتف القرآن بطلب التحلى بالصبر ، بل طلب التواصى به ، لما ذكرناه فى سورة العصر ثم قرن به التواصى بالمرحمة ، لأن المرحمة هى المحرك لفعل الخير ، والإحسان إلى الناس ، وبخاصة أهل الضعف والحاجة ، كالرقيق واليتيم والمسكين . ومما يلاحظه المتتبع لألفاظ القرآن أن كلمة « تواصوا » لم ترد فيه إلا أربع مرات : اثنتان فى سورة « العصر » ، ومثلهما فى سورة « البلد » . وقد كان له - أى الصبر - مرتان من هذه الأربع ، وهذا يدل على أمرين .

أولهما : فضله ومكانته وأهميته فى دين الله وحياة المؤمنين .

ثانيهما : مشقته على النفوس ، بحيث يحتاج إلى التوصية والتذكير به بين المؤمنين بعضهم وبعض . فكل فرد مؤمن عليه أن يوصى غيره بالصبر كما يقبل الوصية به منه .

ثانياً - التنويه بمكانة الصابرين وموضعهم فى أهل الإيمان

نوه القرآن بمكانة الصابرين ، وبيّن موضعهم من أهل الإيمان والتقوى الفائزين بالجنة والناجين من النار .

(أ) ففى بيان القرآن لحقيقة البر وصفات الأبرار ، رداً على اليهود المتمسكين بالرسوم والشكليات الفارغة من روح الدين الحق ، والذين جعلوا الدين مجرد مظاهر سطحية لا تحقق براً ، ولا تنشئ تقوى . ولهذا أقاموا الدنيا وأقعدوها من أجل تحويل المسلمين قبلتهم من جهة إلى أخرى بأمر ربهم .

هنا يرسم القرآن المعالم الأساسية للبر والتقوى - وبعبارة أخرى - للتدين الحقيقى الصادق ، لا التدين الورائى الزائف ، فيقول فى سورة البقرة : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُؤْاُ وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَلَئِكَهٖ وَالْكِتَآبِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهٖ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبَنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) .

تحدثت الآية عن بر العقيدة : من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وبر العمل من إيتاء المال على حبه ذوى القربى ومن بعدهم ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . . . وبر الأخلاق ، فذكرت خُلُقَيْنِ رئيسيين هما : الوفاء بالعهد ، وهو يشمل العهد مع الله ، والعهد مع النفس ، والعهد مع الناس . والصبر فى البأساء (الفقر والحاجة) ، والضراء (المرض والألم) ، وحين البأس (ساحات المعارك والحروب) .

وقد ميزت الآية الصبر هنا حين غيَّرت إعراب « الصابرين » من حالة الرفع عطفاً على « الموفون » قبلها . إلى حالة النصب ، دلالة على الاختصاص وتنبهاً للقارئ العارف ليقف عند هذا الوصف المتميز ، كأنه يقول : وأخص بالذكر أو المدح والثناء هنا : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ (البقرة: ١٧٧) ثم يجيء ختام الآية ملاصقاً لهم ، ومتصلاً بهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

(ب) وفى حديث القرآن عن صفات المتقين الذين أعد لهم جنته ورضوانه فى سورة آل عمران ، يجعل اتصافهم بالصبر فى مقدمة ما تحلوا به من أخلاق بعد الإيمان بالله تعالى وذلك إذ يقول : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ ۖ وَالْمُنْفِقِينَ ۖ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۖ

(آل عمران: ١٥-١٧)

(ج) وفى بيان القرآن لأوصاف المخبتين - وهم أهل الخشوع والتواضع والطمأنينة والسكينة - فى سورة الحج ، يجعل الله تعالى الصبر من أجمل حلالهم ، وأبرز مزاياهم : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (الحج: ٣٤، ٣٥) فقد ذكر الصبر بعد وجل القلوب من ذكر الله ، وقبل إقامة الصلاة والإنفاق مما رزق الله . فالمخبتون لهم وصفان نفسيان هما : الوجل والصبر ، ووصفان عمليان هما : الصلاة والإنفاق .

(د) وفى سورة الأحزاب يُعَدُّ الله المقامات الدينية ، والفضائل الخُلُقِيَّة للجنسين من المسلمين والمسلمات ممن أعد لهم المغفرة والأجر العظيم . فإيرنا الصبر إحدى

السمات البارزة فيقول : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

ثالثاً : ترتيب خيرات الدنيا والآخرة على الصبر

رتب القرآن خيرات الدنيا والآخرة على فضيلة الصبر ، فالنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة ، والفوز بالجنة والنجاة من النار ، وكل خير يحرص عليه الفرد أو المجتمع ، منوط بالصبر ، من هذه الخيرات التي ذكرها القرآن :

١- معية الله تعالى للصابرين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٣) ، وقد ذكرت هذه المعية في القرآن في عدة مواضع :

(أ) في سورة البقرة حيث أمر تعالى المؤمنين أن يستعينوا على أمورهم بالصبر والصلاة : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(البقرة: ١٥٣)

(ب) وفي السورة ذاتها على لسان المؤمنين من أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يشربوا منه إلا من اغترف غرفة بيده : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٤٩)

(ج) وفي سورة الأنفال حيث أمر الله المؤمنين بما يلزمهم لمواجهة العدو من شرائط النصر ، وأحدها الصبر : ﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٤٦).

(د) وفي نفس السورة في قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا لَكَ خِزْيًا مِّنَ الْأَعْيُنِ إِذْ جَاءَكَ فَخْرُكَ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ بِنَظَرٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا لَكَ الْفَيْءَ الَّذِي تَأْكُلُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِتَالِ حَرَامًا وَلِذِي الْقُرْبَىٰ حَرَامًا وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا لَكَ الْفَيْءَ الَّذِي تَأْكُلُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِتَالِ حَرَامًا وَلِذِي الْقُرْبَىٰ حَرَامًا وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٥، ٦٦).

وهى معية خاصة تتضمن الحفظ والرعاية والتأييد والحماية ، وليست معية العلم والإحاطة ، لأن هذه معية عامة لكل الخلق : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (الحديد: ٤).

٢- محبة الله تعالى لهم : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾

(آل عمران: ١٤٦)

٣- إطلاق البشرى لهم بما لم يجمع لغيرهم : ﴿ وَيَشِيرَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٥).
﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٧) فجمع لهم بين الصلوات من الله والرحمة وبين الاهتداء . وكان عمر يقرؤها ويقول : نِعْمَ العدلان ، ونعمت العلاوة للصابرين . يعنى بالعدلين : الصلاة والرحمة . وبالعلاوة : الهدى . والعلاوة : ما يحمل فوق العدلين على البعير .

٤- إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٦) .

٥- توفيتهم أجورهم بغير حساب : ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر: ١٠) فما من قربة - كما قال الإمام الغزالي - إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر . ولأجل كون الصوم من الصبر ، وأنه نصف الصبر ، قال الله تعالى - أى فى الحديث القدسى - : « الصوم لى وأنا أجزي به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ^(١) .

٦- ضمان النصره والمدد لهم . قال تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٥) ، وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (الأعراف: ١٣٧) .. وفى هذا جاء الحديث : « واعلم أن النصر مع الصبر ».

(١) إحياء علوم الدين ج٤ ص ٦٢ ط. دار المعرفة بيروت .

٧- الحصول على درجة الإمامة في الدين . نقل العلامة ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله : « بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين » . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِأَيَّتِنَا يُوَفُّونَ ﴾ (السجدة: ٢٤)

وقرأ الإمام سفيان بن عيينة الآية فقال : « أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء » .

٨- الثناء عليهم بأنهم أهل العزائم والرجولة : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦) ، ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (الشورى: ٤٣) ، وفى وصية لقمان لابنه : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ١٧) ، وفى هذا قيل : الصبر مُرٌّ ، لا يتجرعه إلا حُرٌّ .

٩- حفظهم من كيد الأعداء : ﴿ إِنْ تَمَسَّكُكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٠)

١٠- استحقاقهم دخول الجنة ، وتسليم الملائكة عليهم . قال تعالى : ﴿ وَجَزَلْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (الإنسان: ١٢) ، ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٥) ، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (س: ٢٣) ، ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٣، ٢٤) .

١١- انتفاعهم بعبير التاريخ واتعاظهم بآيات الله فى الأنفس والآفاق . قال تعالى لموسى : ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (إبراهيم: ٥) ، وقال بعد ذكر قصة سبأ ما صنع الله بهم جزاء كفرهم : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (سبأ: ١٩) .

وقال تعالى فى شأن السفن البحرية الضخمة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (ن: ١٦) ، ﴿ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (الشورى: ٣٢، ٣٣) .

* * *